

الفصل الرابع

تراجم سياسية

١

رجال السياسة يكتبون مذكراتهم

لعل أقدم صورة لهذه المذكرات السياسية والحربية ما كان يقصه أبطال العرب في الجاهلية والفتوح الإسلامية عن مغامراتهم وما قاموا به من بطولة خلال المعارك والوقائع المختلفة . وقد احتفظت كتب التاريخ وسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم بكثير من هذا القصص . حيث نجد الرواة يروونه مباشرة عن أصحابه واصفين أحوالهم وأحداثهم الحربية .

وأخذ العرب منذ العصر العباسي يسجلون هذا القصص وما يتضمن من أخبار ، كما أخذوا يكتبون التاريخ : تاريخهم وتاريخ الأمم من حولهم . وعُدوا عناية واسعة بدولهم ونشأتها وما مر بها من أحداث ، وكانوا يستندون بتاريخهم إلى عصورهم ، فيكتبون عنها كتابة المشاهد الذي لا يترك شاردة إلا يسجلها تسجيلا دقيقاً ، وكانى بجمهورهم تحول إلى آلات رصد كبيرة . وهى آلات دقيقة ، قلما أصابها وهن أو ضعف بسبب عقيدة . وكل من يقرأ فى الطبرى ومسكويه والبلاذرى واليعقوبى والمسعودى وابن الأثير وابن حيان وابن تغرى بردى وابن الخطيب وابن خلدون يُكبر مؤرخى العرب ، ويشهد بسلامة حاسمهم التاريخية ، فقد أودعوا كتبهم التاريخ السياسى العربى بكل حقائقه ووقائعه .

ولم يكن رجال السياسة في أول الأمر يعنون بكتابة مذكراتهم عن الأحداث السياسية والحربية التي اشتركوا فيها أو كانوا سبباً فعلياً من أسبابها ، مكفين بما يكتبه معاصروهم من المؤرخين في إنصاف وعدالة تامة في الحكم . غير أننا لا نصل إلى القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) حتى نجد بعض السياسيين يكتبون مذكراتهم ، وكأنهم يريدون أن يضعوا تحت أعين المؤرخين الأحداث كما شاهدوها وبمقدار ما تدخلوا فيها ليكون حكمهم أكد وأوثق .

ومن أوائل من عنوا بذلك المؤيد في الدين داعي دعاة الفاطميين أو زعيم هؤلاء الدعاة المتوفى سنة ٤٧٠ هـ / ١٠٧٨ م واسمه هبة الله بن داود بن موسى ، بدأ دعوته لهم في مسقط رأسه « شيراز » إحدى بلدان فارس ، وما زال يعلو في رتبته عندهم ، حتى جعلوه زعيم دُعاهم .

وهو في مذكراته التي تسمى « سيرة المؤيد في الدين داعي الدعاة » يقص علينا مغامراته في سبيل الدعوة للفاطميين خلفاء مصر المشهورين ، لا في بلدانهم التي كانت تستظل بحكمهم ، وإنما في شيراز وبلاد فارس ، ثم في أعالي الشام والموصل والعراق . والكتاب بذلك ليس سيرة كاملة له ، وإنما هو مذكرات عن جهوده السياسية في حقبة من حياته امتدت من سنة ٤٢٩ هـ / ١٠٣٧ إلى سنة ١٠٥٨ هـ / ١٠٥٨ م أما حياته قبل هذه الحقبة وبعدها فلم يعن بها أى عناية .

ونراه يذكر لنا في مقدمة السيرة بأنه إنما يكتبها ليقف الناس على ما كان من جهوده في إدخال أبي كاليبجار البويهى ملك فارس وهمدان في العقيدة الفاطمية الشيعية ، وما سبق ذلك ولحقه من قيام فن ضده هناك ، فقد أوغر العلماء والقضاة صدرَ السلطان عليه ، وبعد تحن رضى عنه وقربه منه لما رأى من دعوته في قلوب « الديلم » وهم أهم جنده ، ولما أظهر من مهارة وتفوق في مناظراته لبعض علماء أهل السنة يقول :

« فسكنَ جأشُ الملك واطمأن قلبه ، وقال : إني أسلمتُ نفسى ودينى

إليك ، وإننى راض بجملة ما أنت عليه ، فاستقر الأمر على أن أجتمع به كل ليلة جمعة للمذاكرة والمفاتحة ، فكنت كل ليلة جمعة أمكث عنده إلى أن يمضى هزيع من الليل ، وهو يسألنى عن جميع ما يهيجس فى نفسه ، وكنت أجيب عنه جواباً يظهر أكثره تباشير الفرح فى وجهه ، وأسأله كيف وقع هذا الجواب منك ، فر بما حرك رأسه يعنى أنه جيد . فلا أرضى دون أن أقرره بلسانه أنه ما دخل فى مسامعه مثله . قصداً منى لتندمه على فرطاته . وإقامة الحججة عليه بكون الحق فيما كان يحسبه ضلالا والرشد فيما كان يظنه غيياً . وكان بناء المجالس التى تعقد بحضرته فى ليالى الجمعات على أن يُستَدَّأ بقراءة شىء من قوارع القرآن . ويثنى بباب من كتاب الدعائم " أحد كتب الدعوة " ويثلث بأن يسأل عما يريد فأجيبه عنه . وأختم بالتحميد والخطبة لمولانا الإمام "المستنصر الفاطمى الخليفة بمصر إذ ذاك" بحمد الله ملكه فى ولده من بعده . ثم أنصرف إلى منزلى .

وظل الأمر بينه وبين أبى كاليجار على هذه السيرة ، حتى ذاع وانتشر بين الرعية أن السلطان دخل فى الدعوة الفاطمية فغضب أهل السنة . وغضب معهم الخليفة العباسى . وهدده أن يستعين ضده بالسلاجوقيين أصحاب آسيا الصغرى ، وكان سلطانهم يمتد إلى الموصل ، ويرشك أن يقضى على البوييين ، فعشى أبو كاليجار مغبة اندفاعه ، وأوحى إلى المؤيد فى الدين أن يفر بنفسه ويخرج من دياره سنة ٤٣٨ هـ / ١٠٤٦ م .

ويصل المؤيد إلى مصر بعد مشقات ومعاناة ، فلا يجد ما كان يظنه من الترحيب به . بل تزور عنه الوجود . يقول : « ولما وصلت بالحضرة الشريفة .. وكنت استصحبت إليها من البضاعة ما كانت تحدثنى نفسى أننى به أفلح .. ومنه أطأ فوق النجوم بقدمى لكون متجربى فيها ربيعاً وسعي نجيحاً .. فكشف لى الزمان عن كون البضاعة التى كان رجائى فيها هذا الرجاء باثرة كاسدة مستردلة مستدلة . فأسقط فى يدى وعمى على طريق رشدى » .

ويقصد المؤيد ببضاعته جهوده فى الدعوة وما صنعه ضد العباسيين فى فارس

وفي أثناء طريقه وكيف استمال أبا كاليبجار إلى المستنصر وأدخله في طاعته. وكانت مصر والدعوة الفاطمية فيها حينئذ يعانيان من فساد الحكم ، وكان الخليفة ألعوبة في أيدي وزرائه ، وكانت أمه ووكلاؤها يستأثرون بالسلطان من دونه ، ويقص علينا ذلك كله المؤيد ، حتى ليقول : « لا خير من المقام على باب من يكون محجوراً عليه . ويكون مقاليد أموره بيدي غيره لا بيديه » .

ويترك المؤيد باب الخليفة مؤقتاً ، ولكن لا ليخرج من الدعوة ، بل ليعمل فيها ثانية ، وليشترك في مؤامرة كبرى ضد الخليفة العباسي ، إذ يلحق بالباسيري في العراق ، وما يزال يؤلب الإمارات في الشام والموصل ، محاولاً إخراجها من الدعوة العباسية إلى الدعوة الفاطمية . ويظل في ذلك حتى سنة ٤٥٠ هـ / ١٠٥٨ م فيعود إلى مصر ، ويتم الباسيري المؤامرة ، فيستولى على بغداد ويخلع الخليفة العباسي القائم بأمر الله ويخطب للمستنصر بإمرة المؤمنين على منابر العراق سنة . ولكن المستنصر قعد عن نصرته . فلم تمكث دعوة الباسيري طويلاً بل سرعان ما قضى عليها السلجوقيون .

وهذه السيرة أو هذه المذكرات طريفة لأنها ترينا كيف كان يعمل دعاة الفاطميين سرّاً . وكيف كانوا يحركون المؤامرات في سبيل دعوتهم . وقد كشفت لنا عن جميع المقدمات التي سبقت استيلاء الباسيري على بغداد وكيف قُطعت الدعوة العباسية لمدة عام على منابر العراق . وكل ذلك وثائق تاريخية جلية ، وهي تقع في نحو مائة وثمانين صحيفة من القطع الكبير . وليس هنا مكان تفصيل ما اشتملت عليه هذه الوثائق من العقائد الفاطمية ، وقيمتها في هذا الجانب كبيرة . ومن أهم المذكرات السياسية التي كتبت في هذا القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) كتاب « التبيان عن الحادثة الكائنة بدولة بني زيري في غرناطة » ألفه عبد الله بن بلقين آخر أمراء بني زيري على هذه البلدة ، ومعروف أن المرابطيين بقيادة يوسف بن تاشفين تخلعوه من عرشه سنة ٤٨٣ هـ / ١٠٩٠ م ونفوه إلى المغرب فعاش في آغمات . وعكف على تأليف هذا الكتاب . ولم يخلعه

المرابطون وحده ، بل خلعوا جميع أمراء الطوائف وملوكهم ما عدا بنى هود في سرقسطة . وبذلك دخلت الأندلس في حوزتهم وأصبحت تابعة لهم . ولبلادهم وسلطانهم في المغرب مدة خمسين عاماً تقريباً ، حتى إذا غلبت دولة الموحدين عليهم تحولت إليهم الأندلس بجناتها وبلدانها .

وبنو زيرى آباء عبد الله بربر من صنهاجة بالمغرب . وهم مثل غيرهم من أمراء الطوائف ، قاموا على أنقاض الدولة الأموية ، وأسسوا لهم إمارة في غرناطة . توارثها الأبناء عن الآباء طوال القرن الخامس الهجرى ، واستطاعوا أن يضموا إليهم مالقة . واعتلى عبد الله بن بلقين عرشها سنة ٤٦٦هـ / ١٠٧٣ م بينما اعتلى أخوه تميم عرش مالقة .

وعُرفت مدة أمراء الطوائف بكثرة الفتن الداخلية وانتقاض الأمراء بعضهم على بعض . وانتقاض ولائهم عليهم ، وكثرة حروبهم ومناوشاتهم مع جيرانهم من المسيحيين . وكان ألفونس السادس لهم بالمرصاد ، واستطاع أن يفرض إتاقه على كثيرين منهم . مثل عبد الله بن بلقين والمعتمد بن عباد صاحب إشبيلية ، واستولى على طليطلة من بنى ذى النون . واضطر أمراء الطوائف تحت ضغطه أن يستغيثوا بيوسف بن تاشفين سلطان المرابطين في المغرب ، وأغاثهم يوسف ، وأوقع بألفونس هزيمة منكرة في « الزلاقة » وتطورت الحوادث ، ورأى يوسف من الضروري الاستيلاء على هذه الإمارات حتى تقف البلاد صفاً واحداً أمام الفرنج وكان ذلك تديباً سديداً . ولولاه لخرج العرب من الأندلس مبكرين .

وعبد الله بن بلقين في كتابه أو مذكراته يسجل تاريخ أسرته من بنى زيرى تاريخاً دقيقاً . وهو تاريخ سياسى مليء بالملاحظات الطريفة ، عن هذه الحقبة من تاريخ الأندلس ، فقد عرض بالتفصيل تاريخ دولتهم وعلاقتها بجيرانها من الأندلسيين والمسيحيين في السلم والحرب .

وأكثر الكتاب ترجمة سياسية له ولحكومه ، فهو بذلك من كتب التراجم الذاتية ، وقد تحرر في الصدق عن نفسه وعن جيرانه ، ووصف وصفاً مسهباً ما لى

من مشكلات في إمارته وما دُبِّرَ ضده من ثورات وما دخل فيه مع المسلمين والمسيحيين من حروب ومعاهدات ومناقضات . وهو في أثناء ذلك يعرض علينا مسرح الأندلس بكل ما كان فيه من صور انحلال سياسي واجتماعي هيأت لاستعلاء كامنة ألفونس السادس في أول الأمر على من يجاوره من الأمراء والمسلمين . وأعدت ثانية لاستيلاء يوسف بن تاشفين على ولايات هؤلاء الأمراء وإنهاء عهدهم بالأندلس .

وفي الكتاب مادة وفيرة لمن يريدون أن يؤرخوا عصر أمراء الطوائف تاريخاً صحيحاً وثيقاً ، وهو في حقيقته مجموعة من الوثائق النفسية عن هذه الحقبة . بدأه بفصل عن القواعد التي ينبغي على المؤلف اتباعها في تأليفه . وجعل على رأسها مجازبة الهوى وابتغاء الصواب والحقيقة ، وأعلن أنه لن يعنى بسجع كلامه وحلاه اللفظية ، حتى لا يجور اللفظ والسجع على المعنى . ثم استطرد إلى بيان حقيقة الإسلام وقصور القياس دون عون من الوحي . وتحدث عن ضرورة التعليم والتجربة . وقال إنه حفظ القرآن وألم بصنوف من الآداب . ثم تحول به جده إلى أمور السياسة ، فوقفه على وجودها ومرنه على جميع أعمالها ، حتى يحسن فيما بعد تدبير شئون مملكته . وكان أبوه مرشحاً من قبله لولاية العهد . ولكن المنية اخترمته . ففقل جده ولاية العهد إليه ، وعنى بتربيته السياسية عناية شديدة .

ويبين لنا عبد الله صعوبة الإنصاف التاريخي وأن الناس لا يجمعون على مدح أحد ولا ذمه ، فريضا العامة لا يدرك ، ولما كان الوالى على شئون الناس يحكم فيما بينهم كان من يحكم له يخرج راضياً ، ومن يحكم عليه يخرج ساخطاً . ومن هنا لا تتفق العامة على مدح شخص . وواجب على المؤرخ أن يميز الأخبار وأن لا يأخذ بكل ما يسمعه من الناس .

ونحن لا نمضى في قراءة الكتاب حتى نعجب بشخصية هذا المؤلف . إذ حاول أن يتخلص من كل هوى وعصبية . ليسجل لنا تاريخ بلاده وإماره أهله وإمارته هو نفسه تسجيلاً مستبصراً فيه ، مبتغياً الحق ما أمكنه . وحاول أن

يبرر سياسته في مراضاة الفونس ودفع الإتاوة إليه . وهو حتى في هذا التبرير لا يتحيز ، وإنما يعرض الحوادث بجميع تفاصيلها لتحكم . وأنت دائماً تحكم له بأنه كان حازماً في سياسته ، وأن ما صنعه كان الوجه الذي ينبغي أن يختاره العاقل الحصيف .

ويعرض علينا كل ما كان من مؤامرات وخيانات بين أمراء الطوائف وكيف انتقضت كلمتهم أمام الفونس ، حتى أصبحوا مرعى خصباً له ، وكان قد فغر فاه ، وابتلع طليطلة سنة ٤٧٨ هـ / ١٠٨٥ م وهو على وشك أن يبتلع بقية الإمارات . وأسهم عبد الله في موقعة الزلاقة ، ووصف لنا نزول المرابطين الأندلس بدعوة من أمراءها ، كما وصف لنا كل الظروف التي أودت بملكه وملك من حوله من الأندلسيين .

والحق أن هذه المذكرات مجموعة من الأضواء النفاذة سلطت على عصر أمراء الطوائف بالأندلس ، فإذا هي تبتد كل ظلام فيه . وإن من الواجب أن يعيد المؤرخون كتابة هذا العصر على هدى تلك المذكرات . وليس هنا مجال الحديث عما تضيفه هذه المذكرات إلى الكتب التاريخية من معلومات جديدة ، ويكفي أن كاتبها كان من أمراء العصر الذين شاركوا في أحداثه ، وقد رأى تحت عينه لمدة نحو عشرين عاماً سفينة هذه الإمارات تتجازها العواصف من كل جانب . من الداخل والخارج ، حتى هيا القدر لها رباناً جديداً فانضوت تحت لوائه ، وأمكن لمن تحملهم أن يظلوا هناك قرناً متطاولة .

ونخصي إلى القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي) فنلتقي بعبارة اليمنى المتوفى سنة ٥٦٩ هـ / ١١٧٣ م وأسامة بن منقذ المتوفى سنة ٥٨٤ هـ / ١١٨٨ م . ولأولهما كتاب يسمى «النكت العصرية في أخبار الوزراء المصرية» . وعنوان الكتاب لا يدل على حقيقته ، فهو ليس طائفة من الأخبار عن هؤلاء الوزراء ، وإنما هو في أخباره هو نفسه ، وبعبارة أدق هو ترجمة ذاتية له . وهي ترجمة سياسية .

ويعرفنا عمارة في أوائل كتابه بمولده ونشأته . فهو من تهامة اليمن ، من بلدة يقال لها مُرْطَان ، وهو قحطاني مَدْحِجِي من سعد العشيرة ، كان أباهُ سادة قومه ، وكان منهم العلماء المصنفون . ولد سنة ٥١٥ هـ / ١١٢١ م ولما شب أرسله أبوه إلى زَبِيد ليتفقه في دينه . ومن ثم تعلق بالتجارة ، وشدا الشعر ، واتصل بمَلِكِ الْيَمَنِ وآل زَرِيْعِ خاصة . وحج سنة ٥٤٩ هـ / ١١٥٤ م فبعث به صاحب مكة رسولا إلى الفائز خليفة مصر الفاطمي حينئذ . فقدمها سنة ٥٥٠ هـ / ١١٥٥ م وكان الوزير بها طلائع بن رُزَيْك ، فاستقبله في قاعة الذهب بقصر الخليفة ، ووقف عمارة بين يديه فأنشده إحدى مدائحه فيه وفي الخليفة . ووفيت عليه الخلع ، ونالوه طلائع خمسمائة دينار . وأرسلت إليه سيدة القصر بنت الخليفة السابق (الحافظ) خمسمائة دينار أخرى . وتهادته أمراء الدولة .

ويتحول الكتاب من هذا الموضوع إلى مذكرات سياسية قيمة . فيصور لنا أحوال مصر ومجالسها الأدبية ولا يلبث أن يعود إلى مكة . فمسقط رأسه . فزبید ، ثم يهيج في سنة ٥٥١ هـ / ١١٥٦ م فيرسل به صاحب مكة إلى مصر في سفارة ثانية ، ويحتفل به المصريون وعلى رأسهم طلائع وتغدق عليه الجوائز والعطايا إغداقاً . ويستقر عمارة بمصر ، ويُمْتَلُ وزيرها طلائع . وتكون المناقشة الحادة بين ضرغام وشاور ، ويستنجد العاضد آخر الخلفاء الفاطميين بنور الدين صاحب الشام ، فيرسل إليه بأسد الدين شيركوه وابن أخيه صلاح الدين ، وتتطور الأمور ويصبح أسد الدين شيركوه وزيراً للخليفة ، ويعاجله الموت . فيتولى الوزارة من بعده صلاح الدين . ويقضى على الخلافة الفاطمية قضاء مبرماً . ويعود بمصر إلى الخلافة العباسية وعمارة يتحدث عن نفسه وعن علاقته بهؤلاء الوزراء جميعاً وبأسد الدين شيركوه وصلاح الدين . ويلم بكثير من الحوادث . مضمناً كتابه ما نظمه من قصائد في هذا الوزير أوذاك أو في هذا الأمير أو ذلك .

وكان عمارة قد تحول شيعياً . فلما أزيلت الدولة الفاطمية نعاها في غير قصيدة . وعرف فيه صلاح الدين ووزيره القاضي الفاضل هذه العصية ،

فظاولاه . حتى اشترك في مؤامرة يريد بها قلب نظام الحكم والرجوع بمصر إلى الدعوة الفاطمية ، واكتشفت المؤامرة ، فصُلب في جماعة من أصحابه ولم تفسده مدائح الكاذبة في صلاح الدين ورفقائه .

٢

أسامة بن منقذ

أحد أبطال المسلمين في الحروب الصليبية ببلاده في الشام . وقد زار مصر وشارك في أحداثها السياسية ، ثم زار الموصل ، وتولى أعمالاً كثيرة لأمرأء مختلفين كان آخرهم صلاح الدين الأيوبي . وامتدت حياته حقباً متطاولة من سنة ٤٨٨ هـ / ١٠٩٥ م إلى سنة ٥٨٤ هـ / ١١٨٨ م . وهو كالتحفة لا يقر ولا يسكن . يشترك في حرب الصليبيين ويخوض معهم معارك حامية . وحين نضع الحرب أوزارها يكون له منهم الصديق . ويعاشرهم . ويرقب حياتهم . ويسجل ملاحظات مختلفة عن معاشهم ونظمهم ومعارفهم .

كان أباهُ أمرأء شبيزَر ، وهي حصن حصين ، أقامته الطبيعة على ضفاف العاصي بالقرب من حماة في أعالي الشام . وكم تكسرت تحت عينه على هذا الحصن رماحُ الروم والصليبيين والإسماعيلية الحشاشين وبعض العرب من بني كلاب في حنّلب . وكان عمه أمير الحصن . تنازل عنه أبوه . وكان أكبر منه سنّاً . ولم يكن له ولد في أول الأمر . فاشترك مع أبيه في تربيته والعناية به . حتى يكون خلفاً صالحاً له ، وحفظ القرآن الكريم . وتعلم علوم العربية وقرأ في آدابها . وقد اهتما بتربيته الحربية وتربيته على صيد الحيوان الأليف والوحشي حتى يحسن صيّد الصليبيين وغيرهم من خصومه الآدميين . وتصادف أن رُزق عمه ولداً وأحسن أسامة منه الغيرة والوحشة . فترك مسقط رأسه حول

سنة ٥٣٠ هـ / ١١٣٥ م وتقلب في البلاد يخاطر ويغامر ، لا يستقر به ميدان ولا بلدة من البلدان .

أسامة إذن شخصية فذة من شخصيات الحروب الصليبية ، وكان شاعراً أديباً ، كما كان فارساً رهيباً ، فلقى الاحترام والتبجيل من المسلمين والصليبيين على السواء ، وقد حاول بأخرة من أيامه أن يكتب حياته وما لقي فيها من عبر الحوادث ، فكتب كتابه « الاعتبار » وهو مذكرات بديعة ؛ تصور لنا الفروسية العربية زمن الصليبيين ، كما تصور حياة المسلمين لعصره وحياة الصليبيين أنفسهم ، وهو تصوير أمين دقيق .

وإذا كان هناك شيء يؤخذ على هذه المذكرات فهو أنها لم تكتب بشكل منطقي منسق على الزمن وتطوره وامتداده ، وإنما كتبت في شكل أخبار من هنا وهناك . ومع ذلك فإنها تلم بحياته منذ صباه وحياة أبيه وعمه وكل ما كان يبيته في نشأته ، كما تلم برحلاته ، وتنقلاته وحروبه . وهي ترجمة كاملة له . ولكنها لم ترتب ترتيباً دقيقاً . وهو يستهل الكتاب بمعركة شهداها بين المسلمين والصليبيين وهي معركة قنسرين ثم يتحدثنا عن محاولة الروم والفرنج حصار شيزر ، وينتقل سريعاً إلى إقامته في دمشق بعد فراقه لعمه ، وقد أقام فيها ثمان سنوات وشهد عدة حروب ، ثم فارقها إلى مصر ، فأقام بها عشر سنوات ، وكانت حينئذ مسرحاً للفتن والمكاييد والمفاسد ، وقد استقبله الخليفة الحافظ استقبالاً حسناً ، وأكرم وفادته يقول :

« كان وصولي إلى مصر يوم الخميس الثاني من جمادى الآخرة سنة ٥٣٩ فأبرئني الحافظ لدين الله ساعة وصولي ، فخلع عليّ بين يديه ، ودفع لي تسخت ثياب ومائة دينار وخولني دخول الحمام ، وأنزلني في دار من دور الأفضل بن أمير الجيوش (بدر الجمالي) في غاية الحسن ، وفيها بسطها وفرشها ومرتبة كبيرة وآلتها من النحاس . . وأقمت بها مدة إقامتي في إكرام واحترام وإنعام متواصل . » ولم يلبث الحافظ أن توفي وخلفه ابنه الظاهر ، فوالى أسامة بيرة وإنعامه .

ويحدثنا أسامة عن اختلال الأمور بمصر لابن الجندب فحسب . بل أيضاً بين الوزراء ، كما يحدثنا عن كثرة الحصومات والمؤامرات التي كانت تدبّر في هذا البلاط مما لم يجد له مثيلاً في العالم الإسلامي . وبينما كان الظاهر غارقاً في ملذاته كان وزيره الكردي العادل بن السلار غارقاً في دسائسه ومظالمه . وقد اغتاله حفيد زوجته نصر بن العباس ، وتولى الوزارة بعده أبوه . وحاول الابن أن يقتله هو الآخر بتحريض الخليفة ، ولم يلبث أن قتل الخليفة نفسه سرّاً . وأقام العباس الفائز مكانه وأتم فيه إخوته . وتقوم مؤامرات مسلحة ، ويفر عباس . ويفر معه أسامة إلى الشام . ويقتل عباس في الطريق ، يقتله الصليبيون . ويجرح أسامة ، ويصل بعد أهوال إلى دمشق ، ويخدم نور الدين .

وهذه القطعة من مذكرات أسامة وثيقة مهمة في تاريخ هذه الحقبة بمصر وما كان يجلّ لها من سواد . وفراه يتلوها بقطعة أخرى عن معاركه تحت لواء نور الدين مع الفرنج وخصومه من أمراء الشام . والكتاب من هذه الناحية خطير . لأنه يصور انحلال الدول والإمارات الإسلامية في الشرق ، بينا ينزل الصليبيون بالشام ويكوّنون لهم إمارات فيه . ومصر من الجنوب مشغولة بفتحها ودسائس حكّامها ومؤامراتهم ، وإمارات الشام والموصل في حروب مستمرة لامع الصليبيين فحسب ، بل مع أبناء العمومة والإخوة في الدين . وأبواق «الإسبتارية» وغيرهم من فرق الصليبيين مثل الدّأويّة ترن في أسماعهم . ولولا أن هبّ نور الدين يحمى حمى الشام لوقعت البلاد الإسلامية في الشرق كسيرة في أيديهم . ومدّ بصره ، فأرسل أسد الدين شيركوه إلى مصر واستطاع صلاح الدين أن يستخلصها من الفاطميين وما كانت ترزح فيه من فساد في الحكم وانحلال . ولم يلبث أن هزم الصليبيين واستردّ منهم أكبر القلاع والحصون . وأزال إمارتهم في بيت المقدس ، واسترده للعرب والإسلام .

ويفيض أسامة في وصف المعارك مع الصليبيين . ويعود بنا إلى أيام شبابه . ويصبح الحديث ذا شجون . تارة يتحدث عن بعض الحروب في شيزر وغيرها

من ثغور الشام وما أبلى فيها هو وأبوه وأهله ، وتارة يتحدث عن بطولة النساء وما كُنَّ يظهرن من ضروب البسالة والشجاعة، وتحدث في أثناء ذلك عن تعلقه بالصيد، وقد أفرد له فصلاً خاصاً في أواخر كتابه، وقفنا فيه على أدواته لعصره، ومن طريف ملاحظاته أن السباع يكون منها الشجاع والجبان وأن الحُبَّارَى إذا رأت الصقر استقبلته بذنبها ، فإذا دنا منها سلحت عليه ، فبليت ريشه وملاّت عينيه وطارت ، ويقول إن الثمر يستطيع أن يقفز إلى نحو أربعين ذراعاً .

ومن أطرف ما كتبه في مذكراته حديثه عن الفرنج وعاداتهم ، وقد كانوا حين يكفون عن الحرب تقوم بينهم وبين العرب علاقات فيها شيء من حسن الجوار . وصورهم أسامة بأنهم « بهايم فيهم فضيلة الشجاعة والقتال لا غير » وكانت الحضارة الإسلامية فعلاً في هذا التاريخ تتفوق تفوقاً ظاهراً على حضارة الأوربيين ، ومن ثم لا يبالغ أسامة حين يقول عنهم إن « من هو قريب العهد منهم بالبلاد الإفرنجية أجنى أخلاقاً من الذين قد تبلدوا » سكنوا البلاد « وعاشروا المسلمين » فقد كانوا في أثناء مقامهم يكتسبون غير قليل من المدنية الإسلامية والذوق العربي . فتلين طباعهم وتهدب أخلاقهم .

ووقف أسامة عند طرقهم ونظمهم القضائية، فقال إنهم كانوا يعتمدون في محادثاتهم على المبارزة والرمي في الماء ، ويقول إنه لا عقل لهم ولا معرفة ، ومع ذلك يحدثنا عن انعماد المودة بينه وبين بعض فرسانهم حتى كان يناديه بأخي ، وكانت الجنود الداوية تحترمه . فكان إذا زار بيت المقدس يخلون له جانباً يصلح فيه . ويلاحظ أنه لا توجد عندهم غيرة على نساءهم ، يقول : « يكون الرجل منهم يمشى هو وامرأته فيلقاه رجل آخر فيأخذ المرأة ويعتزل بها ويتحدث معها والزوج واقف ناحية ينتظر فراغها من الحديث ، فإذا طوّلت عليه خلاهما مع المتحدث ومضى » . وبعد أن يقص أسامة طائفة من أخبارهم التي تدل دلالة واضحة على نزوب الغيرة على نساءهم . يعود فيقول : « انظروا إلى هذا الاختلاف العظيم ، ما فيهم غيرة ولا نخوة وفيهم الشجاعة العظيمة . وما تكون الشجاعة إلا من النخوة

والأنفة من سوء الأحدوثه » .

وأنى أسامة بنوادر تدل على تأخرهم في الطب وأنهم كانوا حتى متخلفين عن العرب تخلفاً ظاهراً في هذه الدورة من حياتهم . ومعروف أن المدنية الأوروبية التي تروعننا الآن إنما تبدأ مع العصر الحديث ، أما في العصور الوسطى فكانت أوروبا فيها متخلفة ، وكانت تروعنهم الحضارة الإسلامية ، ويقعدون منها مقعد التلامذة من أساتذتهم في الأندلس بقرطبة وطليطلة وغيرهما من الحواضر هناك . وفي الشام ببيت المقدس وأنطاكية وغيرهما من البلدان الشامية ، وأيضاً في صقلية وغيرها من البلاد التي كان يرفرف عليها علم الإسلام والعروبة . ولعل من أكبر الدلالة على ذلك هذه النادرة التي يقصها أسامة عن أطبائهم ، يقول :

« ومن عجيب طبيبتهم أن صاحب المنيطرة ” في أعالي الشام “ كتب إلى عمي ” أمير شيزر “ يطلب منه إنفاذ طبيب يداوى مَرَضِي من أصحابه ، فأرسل إليه طبيباً نصرانياً يقال له ثابت . فما غاب عشرة أيام حتى عاد ، فقلنا له : ما أسرع ما داويت المرضى ؛ قال : أحضروا عندي فارساً قد طلعت في رجله دُمْلَةٌ وامرأة قد لحقها نشاف ” لعله جناف لبسها في الرضاعة “ فعملت للفارس لبيخة ، ففتحت الدملة وصاحت ، وحميت المرأة ورطب مزاجها ، فجاءهم طبيب إفرنجي ، فقال خم : هذا ما يعرف شيء ” فكيف ” يداويهم ، وقال للفارس : أيما أحب إليك : تعيش برجل واحدة أو تموت برجلين ؟ قال : أعيش برجل واحدة فقال : أحضروا لي فارساً قوياً وفأساً قاطعاً : فحضر الناس والفأس وأنا حاضر . فحط ساقه على قرمة ” قطعة كبيرة “ خشب ، وقال للفارس : اضرب رجله بالفأس ضربة واحدة . اقطعها ، فضربه ، وأنا أراه ، ضربة واحدة ، فما انقطعت ، وضربه ضربة ثانية ، فسال مخ الساق ، ومات من ساعته . وأبصر المرأة . فقال : هذه المرأة في رأسها شيطان قد عشقها : احلقوا شعرها ، فحلقوه ، وعادت تأكل من مآكلهم : الثوم والجردل . فزاد بها النشاف . فقال : الشيطان قد دخل في رأسها ، فأخذ موسى ، وشق رأسها صليباً ، وسلخ وسطه ، حتى ظهر الترجمة الشخصية

عظم الرأس ، فحكه بالملح ، فانت في وقتها . فقلت لهم : أتبي لكم إلى حاجة ؟ قالوا لا . فبحثت وقد تعلمت من طبهم ما لم أكن أعرفه ! « ولا يمضي أسامة بل يقف ليقص لنا مقدره طبيب من أطبائهم ، فقد ربح حصان خازناً لبعض ملوكهم يسمى برنار ، يقول : « فعلت عليه رجله وفتحت في أربعة عشر موضعاً ، والجراح كلما ختم موضع فتح موضع وأنا أدعو بهلاكه ، فجاءه طبيب إفرنجي فأزال عنها المراهم وجعل يغسلها بالحل الحاذق ، فختمت تلك الجراح وبريء وقام مثل الشيطان .» ولعل في رواية هذه القصة بجانب النادرة الأولى ما يدل على صدق أسامة فيما يرويه وأنه كان أميناً فيما يذكره من أخبار القوم . على أنه لا يلبث أن يروي لنا هذه النادرة عن صليبي منهم هو صاحب طبرية : فقد حدثه بقوله :

« كان عندنا في بلادنا فارس كبير القدر فرض وأشرف على الموت . فجتنا إلى قس كبير من قسوسنا ، فقلنا أتجىء معنا حتى تبصر الفارس فلاناً ؟ قال : نعم . ومشى معنا ونحن نتحقق أنه إذا حَطَّ يده عليه عرفي ، فلما رآه قال : أعطوني شمعاً . فأحضرنا له قليل شمع ، فليسنه وعمله مثل عقد الإصبع ، وجعل كل واحدة في جانب أنفه . فأت الفارس . فقلنا له : قدمات . قال : نعم . كان يتعذب . فسددت أنفه . حتى يموت ويستريح .»

وفي هذا كله ما يؤكد تأخر القوم بالقياس إلى معاصريهم من المسلمين والعرب . ولعل ذلك ما كان يدفعهم دفعاً إلى هجر عاداتهم إلى العادات الشرقية ، حتى في الثياب والطعام : فقد روى أسامة عن بعضهم أنه كان لا يأكل الخنزير وكان يتخذ الطباخات الشرقية ولا يأكل إلا من طعامهن . ومعنى ذلك أنهم كانوا يتعلقون بالحياة الشرقية في المطعم والملبس ، كما كانوا يتعلقون بها في المسكن . فإذا كانوا قد غزوا بلادنا وفتحوا حيناً بعضها وأقاموا فيها فقد غزتهم هذه البلاد بمدنيتهما وحضارتها . وكانوا لا يزالون جفاة خشنين وغلاظاً فظّنين . ومن طريف ما يقصه أسامة سباق أقامه في طبرية بين عجوزين ، يقول :

« حضرت بطبرية في عيد من أعيادهم وقد خرج الفرسان يلعبون بالرماح ، وقد خرج معهم عجوزان فانيتان أوقفوهما في رأس الميدان ، وتركوا في رأسه الآخر خنزيراً سَمَطَوْه وطرحوه على صخرة . وسابقوا بين العجوزين ، ومع كل واحدة منهما سرية من الخيالة يشدون منها . والعجوزان تقومان وتقعان على كل خطوة ، وهم يضحكون ، حتى سبقت واحدة منهما ، فأخذت ذلك الخنزير في سبقتها » .

ويفرغ أسامة من حديثه عن الصليبيين ، ويأخذ في سرد طائفة من تجاربه واختباراته في شبابه مع التعرض لبعض الأحداث ، ثم يقفز إلى هرمه وشيخوخته ، ويوصي بأن ركوب الأخطار لا ينقص الأعمار . ويقول إن السنين أقعدته عن خدمة السلاطين ، ومع ذلك كان يرعاه صلاح الدين ، ويسهب في مديحه وكيف جمع كلمة الإيمان ، وجمع عبادة الصليبان ، ورفع علم العدل والإحسان ، ويقول إنه من إنعامه كل يوم في مزيد .

وبعامل الشيخوخة نجد أسامة يفرد فصلاً في كتابه لأخبار الصالحين ، ويسرد بعض ما قرأه أو سمعه من قصص عن السابقين وبعض المعاصرين . ويعرض لبعض أدوية تشفى من الأمراض . ثم يفرد للصيد فصلاً طويلاً يتحدث عن آلاته وما شاهده في المصايد المختلفة ببلاده وفي مصر ، وهو فصل طريف إلى أبعد غاية . والحق أن الكتاب طرفة بديعة لما يحوى من مذكرات سياسية وحريرية واجتماعية عن عصره ، وهي مذكرات نفيسة ويزيد في نفاسها أن أكثر ما دونَ بها مما خبره بنفسه ، وشاهده بعينه .

ابن خلدون

ونمضى بعد أسامة . ويدور بنا الزمن دورات ، حتى نلتقي بابن خلدون ، أكبر مؤرخي العصور الوسطى الأخيرة عند العرب ، فنجده يسجل حياته وأحداثها السياسية في تأليفه الذي سماه « التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً » إذ تولى وظائف مختلفة في بلاد المغرب وخدم غير سلطان من سلاطينها ، ثم رحل إلى غرناطة في الأندلس فخدم سلطانها محمداً الخامس لمدة سنتين ، وأرسله في سفارة إلى يدرو في إشبيلية لغرض التعميل في شروط الصلح المعقودة بينهما . ثم ترك الأندلس إلى المغرب وشغل فيه وظائف مختلفة ، ولم يلبث أن اعتزل الوظيفة ، وأقام في قلعة ابن سلامة شرقي تلمسان في شمالي الجزائر ، ليكتب تاريخه المشهور . وفي عام ٧٨٤ هـ / ١٣٨٢ م قصد إلى الحج ، ولكنه لم يتجه مباشرة إلى غايته ، فقد أقام في القاهرة ولزم التدريس في جامعها « الأزهر » ، وعينه السلطان برقوق قاضياً لقضاة المالكية ، وقد ولي هذا المنصب ست مرات ، إذ كان يُعزَّلُ ، ثم يعود . وفي سنة ٨٠٣ هـ / ١٤٠٠ م رافق السلطان الناصر إلى دمشق في حملته على تيمورلنك ، والتقى بهذا الطاغية . وعاد إلى القاهرة ، فظل بها ، حتى توفي سنة ٨٠٨ هـ / ١٤٠٥ م .

فتحن إذن بإزاء شخصية سياسية كبيرة ، ومن هنا يكون لما يكتبه أهمية خطيرة في بيان الشؤون السياسية لدول المغرب ودول المشرق ، فقد تقلد المناصب الكبيرة هنا وهناك ، ورأى تحت عينه كل ما كان في هذه الدول من عوامل قوة أو انحلال وضعف . وأعان ذلك على كتابة مؤلفه العظيم في التاريخ وقد قدّم له بمقدمته المشهورة ، وهي من أروع ما كتبه العرب في السياسة والاجتماع . ولد

بتونس سنة ٧٣٢ هـ / ١٣٣١ م لأسرة من الأسر المشهورة التي نزحت عن الأندلس في عصر الموحدين ، وهي أسرة عربية الأصل ، فقد هاجر جدها الأعلى من اليمن إلى إشبيلية في القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) وفيها ازدهرت أسرته ، ونزح منها أحد فروعها إلى المغرب ، ومن هذا الفرع ابن خلدون ، وكان آباؤه على غراره يشتغلون بالسياسة والأدب .

ويستهل ابن خلدون مذكراته ببيان نسبه وأنه يرتفع إلى خالد أو خلدون الجحد الأعلى الذي نزح إلى الأندلس ، ويذكر بينهما عشرة آباء ، ويقول إنه من حضرموت . من عرب اليمن ، ويتحدث عن أسلافه بالأندلس وشأنهم في الأحداث المختلفة . ثم ينتقل بنا إلى أسلافه في إفريقية وما تولوا من أعمال في الدولة الحفصية . وقد استقر أبوه في تونس زاهداً في هذه الأعمال الإدارية ، ومنصرفاً إلى التدريس وأعمال البر .

ويقضي ابن خلدون في بيان نشأته وشيوخه الذين تلقى عنهم ضروب الثقافة المختلفة بتونس من حديث وقراءات ونحو وفقه وأدب وعلوم عقلية ، ويسمى لنا أكثر ما قرأه عليهم من كتب المعقول والمنقول . ويذكر لنا أن السلطان أبا الحسن المريني قدم إلى تونس عام ٧٤٨ هـ / ١٣٤٧ م ومعه جيلدة من العلماء ، فأخذ عنهم وأفاد منهم كثيراً . ثم يسترسل في الحديث عن هؤلاء العلماء استرسالاً يكشف لنا به الحركة العلمية لعصره في إفريقية كشفاً دقيقاً .

ولم يكن مثل آبيه زاهداً في الدنيا ووظائف الدولة . وأعاتته صلته بالعلماء والرجال البارزين في البلاط المريني على أن يشغل فيما بعد مناصب مختلفة . وقد عين وهو في سن العشرين كاتباً لسلطان تونس واختصه بكتابة العلامة ، وهي وضع « الحمد لله والشكر لله » بالقلم الغليظ مما بين البسمة وما بعدها من مخاطبة أو مرسوم . وكان يتولاها خيار الكاتبين للسلطان .

ونسبت فتن وثورات في العاصمة ، فتركها إلى ابن مزني صاحب الزاب ، واستولى أبو عنان المريني على تلمسان والبلدان الممتدة شرقاً إلى بجاية . فالتحق

بخدمته واشترك في حملاته الحربية ، وأعجب به ، فعينه في كتابته والتوقيع بين يديه سنة ٧٥٦ هـ وواصل دراسته على علماء عصره . ولم تجر الأمور على هواه فقد غضب عليه السلطان بعد عام واحد لما حصل بينه وبين صاحب بجاية من مداخلة هوئها بعض حساده وقالوا إنه يريد أن يساعده لاسترجاع بلده ، فزج به في السجن مرتين ، وظل به إلى وفاة السلطان عام ٧٥٩ إذ عفا عنه السلطان الجديد ، واستخدمه كاتباً بين يديه ، ثم عينه قاضياً للقضاة . وأحس بدساتس جديدة تدبّر له ، فاستأذن في الرحيل إلى غرناطة ، حيث بنى الأحمر وأميرهم محمد الخامس ووزيرهم ابن الخطيب خاتمة أدباء الأندلس المشهور . وكان قد راسله ورحّب بمقدمه . وقدم ابن خلدون سنة ٧٦٤ هـ / ١٣٦٢م وظل سنتين في هذا البلاط وأحس بفتور المردة بينه وبين ابن الخطيب فعوّل على الرجوع إلى بلاده . ونزل بجاية واتخذها أميرها حاجباً له ، وتولى فيها منصبى الخطابة والتدريس . ولما استولى عليها أمير قسطنطينة في العام التالى رحل إلى بسكرة وراسل أمير تلمسان ووفد عليه ، فأكرمه . وسرعان ما قلب الدهر ظهر مجنّته لهذا الأمير ، فاستولى على بلاده السلطان عبد العزيز المرينى ، والتحق ابن خلدون بخدمته . وبظل عنده حتى سنة ٧٧٦ هـ / ١٣٧٤م فيرحل إلى الأندلس ثانية . ويجد وحشة من صاحب غرناطة ، ويجد ابن الخطيب مسجوناً . ويقتل . ويولى وجهه إلى إفريقية فيجد أمير تلمسان أبا حمود استرد بلده من السلطان المرينى . فيقيم عنده قليلا ، ويصم على اعتزال السياسة ويعكف في قلعة ابن سلامة على كتابة تاريخه . ثم يتحول إلى تونس ومنها إلى القاهرة .

ولعل في هذا الخط السريع ما يدل على أهمية هذا الكتاب الذى ألفه ابن خلدون في بيان حياته ووظائفه في الدول المغربية ، فقد أمدنا بتفاصيل كثيرة عن الحياة السياسية في هذه الدول . وكانت تمزقها الفتن والثورات والحروب . وكان دائماً لا يجد بأساً من التحول إلى الغالب . فهو يشغل اليوم مع هذا الأمير وغداً مع عدوه . ومما لا شك فيه أنه لعب دوراً خطيراً في الشؤون السياسية المغربية .

وأتاح له ذلك أن يطلع على أحوال الدول والأمم وأن يؤلف مقدمته الفلسفية لتاريخه، التي تمتاز بالحكم الصائب والنظر الدقيق الفاحص .
ويرحل ابن خلدون إلى الشرق ليؤدي فريضة الحج ، ولكنه لا يواصل رحلته ، فقد مرّ بالقاهرة . وأعجبه النشاط العلمي والأدبي فيها : وكانت حينئذ كعبة العالم العربي ومفزع آماله . يهبط إليها العلماء والأدباء من آسيا فراراً من حملات التتار والصليبيين ومن إسبانيا فراراً من حملات المسيحيين في الشمال ، وقد وصفها على هذا النحو .

« انتقلت إلى القاهرة . فرأيت حضرة الدنيا وبستان العالم ومحشر الأمم ومدرج الذر من البشر وإيوان الإسلام وكرسي الملك ، تلوح القصور والأواوين في جوه . وتزهر الخوانق والمدارس بأفاقه . وتضئ البدور والكواكب من علمائه . قد مثل بشاطئ بحر النيل نهر الجنة ومدفع مياه السماء . يستقيهم العمائل والتسهّل تشبّعهُ . ويحني إليهم الثمرات والخيرات تشبّعهُ . ومررت في سكك المدينة تغص بزحام المارة . وأسواقها تزخر بالنعم » .

واشتغل ابن خلدون أول الأمر بالتدريس . واتصل بالسلطان برقوق فأبرّ لقاءه وأنس غربته وأجزل له في الجرايات والعطاء، وعينه في سنة ٧٨٦ هـ / ١٣٨٤م قاضياً لقضاة المالكية . والتمس منه أن يتوسط عند أبي العباس الحفصي في إرسال أهله وولده إليه . لكنهم غرقوا في الطريق، فزهد في الدنيا وخرج إلى الحج عام ٧٨٩ هـ / ١٣٨٧ م . وعاد فولى القضاء ثانية . وكان يتركه . ثم يستعيده ، كما كان يتولى الدروس والخوانق . وأصبح قريباً من السلطان برقوق . فكان يستشيره في كثير من شئونه . ولما تولى بعده السلطان الناصر قربه منه . وصحبه معه في جملة قضاة حين توجه بحملته المشهورة إلى دمشق للقاء تيمورلنك ودفع جيوشه من التتار إلى الوراء .

ونمي هناك إلى السلطان الناصر أن بعض الأمراء المنغمسين في الفتنه يحاولون الهرب إلى مصر للثورة بها . فرجع وراءهم خشية من انتفاض الناس ، وحلّف

الكثير من أمرائه وقضااته ، وكان ابن خلدون في المخلفين . وسمع أن السلطان تيمورلنك يسأل عنه ، فلم يسعه إلا لقاءه . وأكرم وفادته عليه ، وأعطاه الأمان لأهل دمشق ، وأقام عنده خمسة وثلاثين يوماً يباكره ويراحه ، وعزم عليه تيمورلنك أن يبقى معه في معسكره ، ويعيش بقية حياته في رعايته . وهنا يستعمل ابن خلدون الحيلة ، فقد تحدث إليه حديثاً عذباً كله إطراء وثناء وأنه لا يؤثر على البقاء عنده شيئاً في الدنيا . فأعجب به . وأمر أن يظل في خدمته ، وصدع ابن خلدون لأمره مظهراً الرضا والفرح بذلك غير أنه استأذن في الرجوع إلى القاهرة ليعود بكتبه وأهله . فأذن له . ففضى وهو لا يكاد يصدق بالنجاة من هذه الورطة . ويعود إلى منصبه في القضاء حتى يوافيه أجله سنة ٨٠٨ هـ / ١٤٠٥ م .

وعلى هذا النحو أتيج لابن خلدون أن يرى أكثر العالم الإسلامي العربي لعصره . وأن يشارك في شئونه السياسية شرقاً وغرباً . وليس هذا الكتاب الذي ضمنه التعريف به وب رحلاته إلا مذكرات سياسية خطيرة تقفنا على أحوال البلدان التي ألم بها وكل ما كان يجري بها من شئون سياسية واجتماعية . وستظل هذه المذكرات أهم الوثائق التاريخية التي دُوِّنت عن الأندلس والمغرب ومصر والشام لعصره . وبها نختم التراجم السياسية ، إذ لم يؤلف بعدها ترجمة لها قيمتها وخطرها في وصف العالم العربي وأحواله .